

مَا النِّقْدُ.. وَلِمَ؟

بقلم الدكتور احمد كاك زكي

(١)

الصحيح لنوعية النص الأدبي .
واكثر من هذا اشارة تدهش ان النقد الجديد الذي عرّض لاداء اتمت بعد افساح المجال للشعور - وكان قد تم نشر منفسنو السيربالية على نطاق واسع - يحترف الموقف القائم فعلا بلا تحيز . ولم يمنع تحول النقد الى « قضية كلام » سواء اعتمدت في حيثياتها على التحليل النفسي او على السيمانتقيات - كمظهر من مظاهر الفلسفة الوضعية المنطقية - من استمرار الدعوة الى حرية الاديب في التعبير عن تجربته ، بفض النظر عن مفارقتها للدقة العلمية التي قد يلتزم بها علماء النفس او موافقتها للتاريخيات التي تسود حول النص .

حقيقة تقترح الماركسية - كاتجاه سياسي فني - ان يكون للادب اجتماعياته وظروفه التاريخية باعتبارها ظاهرة لا بد ان توجد ، غير ان طريقة فحصها للنص الادبي واهتمامها الاكبر بالوسط التاريخي الذي تمارس فيه نشاطها يفرضان عليها ان تفرص على الاديب جبرية ليست هي جبرية الالتزام . واذن تصبح الرؤية من منطلقها الماركسي مفايرة للرؤية التي حددها موقف الاديب ، مع ان الرؤيتين فائمتان اصلا على المادية التاريخية .

ولاستمع قارئنا عنرا ، فان مناقشة هذه الخلفيات ندفع بنسنا الى اكثر من مائة . لكن محاولة راب انددوع التي توجد عادة في النقد - عندما يدور حديث الادب - نحتم وقوفنا عندها . وهي فسي الوقت نفسه كشف من جانبي عن الفكرة التي اصدر عنها ، وعن اني برغم ايماني بالاسلوب العلمي في النقد - وهو قد يستعين بالمادية الجدلية على الاول في اعتبار العقل طافة تشارك المادة في خلسق الجمال - فانني لا الزم الاديب باية فيم ، وارى ان له الحق في ان يبسط تجربته باية طريقة بانية ، ما دامت هذه التجربة متوففة في قيمتها على القدرة التكنيكية والاسلوب انذي يستهد اسبابه من الخيال الخلاق .

ولربما ظن اني بذلك لا احفل بان يكون لي معيار واضح او محدد للحكم على الآثار الادبية ، فاسرع وافول : بل لا يخلو اي نقد من معيار فني ، غير اني احرص على ألا اجعله دائرا بين الرفض والقبول ، وسنرى فيما يلي ان الغاية من النقد ليست اكثر من رحلة كشفية لتعرف قيمة واستلذاذ فائدة .

(٢)

من اكثر الفجوات التي المعنا اليها ظهورا في نقدنا فقدان الاتصال

في كل مرة يعرض فيها حديث الادب تلبو فجوات في مناهج الدراسة المتعلقة به ، حتى تيمكن ان يقال ان احدا لا يستطيع ان يخلص المجادة ، فيقوم الاساس ويصح المنهج حقيقة هناك وجهات نظر ، ونمة اتجاهات نقدية ، ومدارس فنية ، وهذه من شأنها عدم التوافق ، وربما انوفوف على طرفي النقيض . الا ان المشكلات التي تطرح لا يمكن ان تصدق في جملتها على واقنا الادبي ، بفض النظر عما يقال في اسباب الخلف عن تأثير الخلفية السياسية ، وفيمة الالتزام ، وطبيعة الاستناطيقا في مفهومها - كعلم - عند هؤلاء الذين يترددون بين المثالية والمادية الجدلية .

فجوات لا يمكن ان سد او يملأها المخلص الذي يستطيع ان ينادي بان الادب رساله جميلة ، ولكنه قد يفقد جماله اذا وقع - باسم النقد - بين فكي هوى صار . اذ ذلك لا يكون نمة فجوات ، وانما هوات تبعث فيها اشلاء كانت قبل النقد تبحث عن موضعها الصحيح من انحركات الاجتماعية ، وازاء القوى التاريخية الماثلة في تطور اجناس الادب .

انني لا اريد ان اصادر قارئنا بفكرة مسبقة ، لكني اعلم انسه يرى - اساسا - ان ادبنا ميراث متحول . تقاليد ورؤى جديدة تتحرك في مجالات استناطيقية متشعبة ، ويوم يضع الناقد هذه البديهية نصب عينيه يحس ان عليه واحدا على الافل من شيئين : اما ألا يعزل الاثر النقود - أعني الذي يراد نقده - عن جنسه وبالتالي عن ظروفه التاريخية بكل ابعاد التاريخ . واما الا يخضعه لفكرة قبلية ايا ما تكون هذه الفكرة وتحتاي شعاع او فلسفة .

ولو قد ضرب بدينك الشيبين عرض الحائط نشل خطوة الادب من ناحية ولطمس من ناحية اخرى عملية التحول الفني ، مع انه فسي الواقع يحمل الكلمة التي تبرهن على ان الاديب يقابل دائما على حدود غده ويؤمن لغيره الطريق الى المستقبل .

والمدهش ان ما حدث ويحدث خارج نطاقنا - في اوربا مثسلا - يؤكد ذلك تماما . فويليك مثسلا لا يخالف ستاروبنسكي في ان الادب تجربة فنية قبل كل شيء ، حتى وان ارتبطت باية حركة سياسية معينة ، وعلى هذا الاساس ينبغي ان تقوم . وقد يخطيء الحقيقة احدهما الا انها يتفقان على الحقيقة التي تعترف بفداحة الصراعات التاريخية التي ينبثق منها الادب ، ومن ثم ينبغي التركيز على الفهم

((وجد كجيد انرثم)) و ((مثل الرثم)) والرثم او الغزالة في القاموس اسم من اسماء الشمس ، وقيل في طلوعها ((ذر قرن الشمس)) ، واذ يذكر امرؤ القيس في تشبيهه له ان الغزلان تأخذ مكانها في محاريب الملوك بقوله :

وماذا عليه ان ذكرت اوانسا

كغزلان رمل في محاريب اقبال

نتنبه على الفور الى قوة العلاقة بين الغزال والعبادة الجاهلية ، وبينه وبين المرأة - وبخاصة اذا كانت جميلة أو كانت اما - وارتباط الانتئين بالشمس المعبودة التي أفسم بها ، ولم ننظر انى ما في هذا القسم من ابعاد ميثولوجية غارقة في القدم .
فهل يمكن ان نستنتج من ذلك اهل مما ذكرنا عن جناية الفساد المتخيزين على آثار الادباء ؟

ونحن نو نقدمنا مع الزمن فس نجد الشيء نفسه ، ففي اطار جمود ظاهر في وضع النظريات انتقدية - المعنية بان شعر بوجه خاص - وعلى الرغم من ان المعالجات الفنية عرضت لواقعتي القدم والحداثة ، فقد انحصر انتقد في مسلمات كانت بمثابة نافذة يطل منها المتأدبون والمتفهمون على الصور والاساليب التي ينبغي ان تصاغ في ضوء التفسيرات انفاصرة للادب الجاهلي . لقد اشعلت شكليات المصاراة القديمة الافكار أكثر مما أشعلتها التجربة ، مما جعل الغالبية تنادي بقداسة الحس اللغوي للعربية ، وان ذهبت الى بندر التطور الزمني لدلالات الانفاظ لمرعاة ما يتكشف من معانيها الاسمالية . فهي تكنفي بمنافضة الفصاحة والبلاغة ، وربما جاوزها الى ((المعاني الشائبة)) التي تجمدت فيما بعد تحت ((علم المعاني)) ليقف في صف مع ((علم البيان)) الذي يرسم أصح السبل لتصوير الادبي المنشود .

وكانت النتيجة ان تجمد انتقد - بعد ان تجمد الشعر نفسه - وانصرف النقاد عن غيره من الاجناس الادبية ، مع ان السبل كلها كانت مهياة لوجود الفصحة وكذلك المعالمة بشكلاها الرسائلي او المفامي .
ان هذه حقيقة لا موضع فيها لاختلاف ، وكان النقاد الذين أصبحوا منذ القرن الثالث عشر ايلادي - وربما قبله - بلاغيين يقولون ان الخروج عن السنن القديم خطأ ، وان الابتكار الذي يجاوز المننبي وأبا العلاء هدم للفظم الادبية ، وان النقاش الذي يحاول الانام بالنص الادبي في مجموعة لا يفضي الى شيء .

أرأينا أحدا اذن درس أدب انقرية قديما ، وتقديم لنفده بسلا مسلمات ؟

وكم نافدا معاصرا انتفع بذلك وانطق ؟

لا مشاحة اذن في ان الافكار القبلية كانت حجر عثرة في سبيل تنويع النتاج الادبي وفي ايجاد المجالات التي تكشف عن امكانات الادباء التي لا يقتلها شيء كما يقتلها الهوى .

(٣)

ومن هذه الفجوات التي بردى فيها ادبنا ممارسة النقد احتراماسا او اجترأ ، يصدر عنه اشخاص يدعون المعرفة او لديهم من المعارف ما لا يثري العملية النقدية من حيث هو خلق ادبي كامل . واحسب ان تاريخنا لا يبخل علينا بغائمة طويلة نؤزاء المحترفين او المجترئين ، وكانت احكامهم في جملتها وتفصيلها آراء فجة او مفتقدة القدرة على مشاركة الاديب المنفود في معاناته الفنية .

ولقد اذكر هنا الباقلائي وقدامه بن جعفر وان كنت اعلمسم ان كثيرين ربما احتجوا لهما ، كما اذكر ابا هلال العسكري على الرغم من ان لديه فهما لا بأس به لطبيعتي الشعر والنثر - وكان هو نفسه شاعرا - ولا يمكن ان آسى ابن شرف الفيرواني الذي افترض نشاطه النقدي على رسالة مقامية عزاه الى ابي الريان الذي ((كان شيخا هتما في اللسان وبدرا تما في البيان)) وجمع فيها مسجعات بالية في الشعر والشعراء ، وفي منازلهم أو طبقاتهم منقدمين وصاخرين ، سميت عند

بنفدنا القديم ، بل ففدان الانصال بالادب الاصل بعامه . ولا افول القرآن - ككتاب ادب - لانه على اساسيته اكبر من ان يسعفنا عليه جهد مفاة في النقد . وبحسبنا انه فيما رأى اولو الخبرة مقسوم لسان ومرجع لفة ومثري اديب ومجال رياضه فنيه ، بصلا عن كونه مدة للتضمين ، ووسيلة للتلقين !

فان منحناه حقه في التقدير بتركه لاستهوال البحث فيه ، فاول ما يطالعنا الادب اتجاهلي . ونسرع فنقول ان النقاد افسدوه على نحو ما يفسد بعض نقاد اليوم ادب الشباب ! الفكرة القبلية ، والاحكام المسبقة ، والتحرك في محيط اسلامي يريد ان يظهر العرب من((جاهلية)) ما قبل الاسلام .

ولقد أصيب الادب الجاهلي - حفيقة - باكبر ما اصيبت به آداب اتسوعوب القديمة . فلقد كان ككل آداب العصور الغابرة مرتبطا بالدين الى ابد مدى ، وهو دين ونبي في جملته ، وان سقق فهو لا يمدو الكواكب التي جعل لها تماثيل - او دمي - جميلة ، واشهرها القمر والشمس والزهرة ، وكان يؤمن بقوى خفية لمائة الالهة القدر. ومثل هذه الامور لا يمكن ان نرضي المسلمين الذين تبنا فكرة التوحيد ، وعمدوا الى ضمس كل مشرق ويهيج في حياة الجاهليين لاطهار قيمة الدين الذي اخرج انقوم من الظلمات الى النور !

وفي زحمة اهدار الوثنيات الجاهلية طوى النسيان الجزء الاكبر من نتاج الجاهليين الفني . وهذه اول جريمة ادبية ارتكبها نقاد امس ، ثم ارتكبوا جريمتهم الثانية عندما انصرفوا الى تفويم ((بلاغسة)) القرآن مبتعدين وسمهم عن رموز الادب القديم وأغلب اشكاله الفنية ، وقد نسوا ان الاولين كسائر اصحاب التأمل لهم نظرات بدخل اليوم في مباحث الانطولوجيا . حقا تم تكن لهم فلسفة وجودية متكاملة - في ضوء ما وصلنا من آثارهم - بيد أنهم كانوا بلا شك بریطون بين الطبيعة وحياتهم ، ويقولون بوحدة يشكلها تربط مظاهر الوجود من حوالهم . فليس بين الناقة وصاحبها فاصل كبير ، والغزالة هي الشمس ، والحبيبة رثم مقدس ، ثم ان للوطم علاقة دموية بصاحبه . وحتسى عندما اقسام عدي بن زيد بالمسيح - في المرحلة التي نمر فيها بعض العرب - اضطر الى ان يشهد صنما معبودا على قسمه ، لانه كان يعس في قرارة نفسه ان بينه وبين هذا الصنم صلة اصغر منها - صلته بالمسيح .

ولقد رفض النقاد المسلمون كل ذلك ، وأصروا على ان يكسبون الشعر مناط اللغويين ، وهمة كل الذين يريدون ان يتخرجوا في القصيد ، ولم يهتموا برموز الشعر ولا بدلالاته الانثروبولوجية . على الاقل لم يجيبوا عن سؤال طرحه احد الدارسين : لماذا لم يرد ذكر الغزالة في شعر اتصيد ؟ وسؤال آخر : ما الناقة العنتريس او العفرانة - وقد ذكرهما عبيد والاعشى - وقد قيل انها من اسماء الفيلان ؟ وسؤال ثالث : لماذا ترتبط صورة المرأة الجاهلية بالطباء او الهسا وهذه فلما توجد في الشعر الجاهلي مفزعة او يفتك بها وحش ؟

الاجابة ان هؤلاء النقاد لم يدرسوا الشعر الجاهلي في ضوء الدين على القاعدة الميثولوجية التي تؤكد اعتماد مجتمعات هذه المرحلة - من التاريخ القديم - على الدين سماويا كان او سحريا . وفي بحث اكاديمي لنصرت صالح عبدالرحمن نرى تنبها الى ضرورة مراجعة هؤلاء النقاد ، لاننا بعد استقراء اي موضوع فيه ننهي الى القول بقصور النقد الكلاسيكي بوجه عام . فمثلا تشبيه المرأة التكر بالدمية والشمس والغزالة والمهاة - وقد ورد في اشعار امرى القيس وبشر بن ابي خازم وعدي ابن زيد والاعشى وغيرهم - مرجعه الى انه كان تلمراة شيء من القداسة عند العرب ، وهي قد سميت بالشمس التي عبت ، قال الله تعالى ((لا تسجدوا للشمس ولا للقمر)) ووصفت بالدمية وكانت الدمى نساوير لريبات عبدا الجاهليون كما رأينا ، كما افتقرت بافزالسة

ان النقد يحتاج الى هؤلاء ، ولا يحتاج الى المتشدق انذي يلوذ الزيف واللفيق . وكاتي هنا بواحد كمجاهد عبد المنعم يفسول ومن مثلنا يتحدث عما يبقى للاستايطيا من الماركسية او الوجودية ؟ من غيرنا بزواج الميتافيزيقا بالادب على نحو يبرز الشرط الانساني ويزجي الاحداث الانسانية في علاقتها مع كلية العالم ؟ من سوانا ينادي بثورية الادب وبضرورة ان يكون رؤية مستقبلية ؟

وكل هذا جميل - ومن الغامض المهم ما قد يكون جميلا بشكل ما - ولكن هل يقضي الى نتائج ايجابية في النقد الادبي ؟ الاجابة بالنفي قطعاً ، ودليل ذلك نقد الكاتب نفسه للشعر الذي نشر في العدد العاشر لعام ١٩٧٢ من مجلة الاداب ، فقد اهدر باسم التجنيح - ولعل له مفهوما ميتافيزيقيا عنده - كثيرا من القيم التي ما كان ينبغي ان نهدر (X) .

(٤)

ويبقى من أهم الفجوات بعدم الفهم للاصول ثم عدم الاختصاص او التخصص مع فحة الاجترار ، ايدولوجية اتناقد في صراهما مع ايدولوجية الاديب . وكلتاها ربما عرضنا لها فيما بيناه ، غير أنني اعود الى الوقوف عندهما في هذه النقطة من المقال لانهما تسيسان الظاهرة الادبية بشكل او باخر ، وعلاقة الادب بالسياسة حاليا - كما نعلم - أصبحت شغل الكتاب الشاغل ، بل أصبحت ماثرا للبحوث المستفيضة التي انتهى بعضها بادانة اغلب الادباء ونفي عدد منهم الى مجال العزلة .

ولهذه الظاهرة تاريخ قديم ، غير انها في هذه الايام رسخت رسوخا أصبح زعزعته من أشق الاعمال . واذكر على سبيل المثال ان المعركة المؤدبة التي نشبت بين محمد عياني ومحمد التويهي على صفحات هذه المجلة كانت واحدة من المعارك التي لم تسيس الادب فحسب وانما اذكت فيه النار القديمة التي اشعلتها - في ثرائنا - الحزبية تارة والشعبوية تارة اخرى ، والتي لولاها لما نوع ادبنا في صورته التي يرسمها القرن الثامن وأوائل التاسع الميلادي .

لكن ادباء تلك المرحلة التاريخية كانوا اصيق افقا ، فاغلقت الابواب على امثال بشار وابي نواس وصريع القواني والخليع . اطلقتها النقاد التعصون ، فتوقف تيار التجديد . ونو قد قيض للحركة الادبية النافذ الواعي الذي أمثل به محمد التويهي - كنموذج ناجح من النماذج الناجحة - لكان لنا الآن من فنون الادب ما نفتقده متحسرين .

لك كانت تجربة تكررت على مدى العصور ، وكانت تدغم - بوجه خاص - ايام المعارك والثورات حيث نهضت الصبقرية باسم الزحف المقدس مثلا أو المقاومة ، لانه لم يكن من سبيل للتعبير عن الموقف - في نظر النقاد - سوى التصايح بالمضامين التي يصلح لها اي شكل وينصق بها اتشكل الفتى السليم . من اجل هذا وجد نقد البورجوازيين الذي يقيم ما يحرص على هدمه الماركسيون ، وعاش الوجوديون في اطر التحليليين النفسيين من حيث هم نقاد اكثر مما عاشوا في وجدان الغالبية العظمى من المثقفين . ويقدر ما بدت الحدائث مرفوضة عند فئة ، تبنتها فئات اخرى باسم التجديد تارة وتحت شعار الصدق الفني تارة اخرى ، لكن وراء ذلك خطأ سياسيا معينا أو ايدولوجية تشكل موففا حياتيا يرى أن يفرض وجوداً خاصاً على الاخرين .

(X) راجع العدد العادي عشر من المجلة المذكورة (سنة ١٩٧٢) صفحة ٩٤ .

ولست بسبيل تحليل آراء هؤلاء وامثالهم ، ولكني افول أنهم لم يكونوا نقاد ادب وانما كانوا يتخذون النقد ارتزاقا . وقد كتب بعضهم في الفقه والفلك ، واشتغل بعضهم الاخر بانطب والمنطق وجنح كثيرون الى رواية الحديث والكلام . فاضطربت من ثم العلاقة بينهم وبين الادباء ، وفي الوقت نفسه خدعوا في بعضهم وأشاءوا يتجادلون في معارك خير لنا الا نعرف عنها شيئا في هذا المجال .

واليوم تتكرر الواقعة ، لا على صفحات المجلات الادبية المتخصصة ، ولا في الصحف اليومية فحسب - مع أنني أسلم بوجود نقاد اصلاص ولكن ايضا في كتب تحمل عناوات جذابة او عناوات جريئة تحتسل مساحة ضخمة ، ومن ورائها شباب في اتاريخ والاجتماع والاستايطيا والتحليل النفسي والمركب الثقافي والنموذج الاصل ، ونحو ذلك .

ولعلنا من هنا نسمع العجب العجيب ، ونجابه بالتحليلات التي لا تنفذ من اي باب . فمن قائل بالنقد الميتافيزيقي الذي اذا كشف عن نقابه - في حدود ما كتب عنه - لاسفر عن سفه وغرور ، ومن مناد بالنبض او الخفق في وعاء فعل الاديب انذاني بفض النظر عن موضوعيته حتى اذا أخذ اتناقد نفسه بالتطبيق تعلق بخيوط واهنة بنظرية القيمة (الاكسيولوجي) وربما اندفع يجتر ما يقدر على معرفته من نظرية المعرفة .

ثم لا نعلم من يلتمس اصل ادب في شجرة الفن ، فاذا نابضنا وقد كدنا نواقفه على ان العمل الادبي حدس لا يكاد يبتق في عقل الاديب حتى ينجلي في الكلمات ، نراه يضل في فضايا فلسفية - وبخاصة اذا كان متفلسفا - ويتحول بحسه النقدي الى حديث عن طبيعة الجمال ، وابعاد الصورة عند التوضعيين وابعادها عند الترابطين او السلوكيين ، وتكون النتيجة مجموعة من الاقوال غير الادبية ، ومجموعة اخرى من الاحكام تسلكه بسهولة مع المصارعين الذين يلوحون بقبضاتهم في الهواء قبل ان تصرهم قبضة الخصوم .

هؤلاء مجنونون ما في ذلك شك ، ومن قبيلهم من يحترف الكتابة النقدية وليس في جمعته سوى فراءات غابرة وسلسلة من الجمال اقتبسها - على نحو ما - ولاكها طويلا ثم عجنها في ماء استنظره من جوته وتواستوى وكروتشه وصمويل الكسندر ومورون ومورافيا .

وتكون النتيجة كلاما لا هو من النقد في شيء ولا هو يمت الى الادب بشيء ، ويزيد الطين بلة من يعتمد الحذلقه وحدها ، فتصبح القصة عنده مزجاة للوقت والفصيحة ترفا ذهنيا والمسرحة استقطابا لمشاعر الجمهور .

على أن ضرر هؤلاء - مهما يكن - محدود لان النظرة الواحدة اليه تكفي لكشف زيفه ونلفيقه . انما المشكلة ان يتسلح اتكاتب بحظ من العلم ويعالج الادب حتى يصرفه جذب القريحة او فصر الباع الى غيره ، هنالك تتعقد الرؤية وتضيق معالمها بين ضموحه الذهني وتجاربسه الانشائية التي عتق عليها الزمان .

صحيح أننا نرى كثيرا يحسنون الانشاء والتنظير والتطبيق ، تماما كما كان البيوت قبل أن يموت ، وكما هو سارتر الآن . وكذاك خليل حاوي وعبد الصبور ونازك الملائكة ، الا ان هؤلاء ذوو خبرة واصالة ويحترمون ذواتهم بالقدر الذي لا يهدر قيم النزعات العلمية التي تميز هذا القرن ، ولم أر واحدا فيهم قد جعل الادباء جوقا مرضى او قصر مهمته على اصدار بيانات لا شأن للادب بها .

ويحضرنى هنا - كعربي من مصر - واقعتان احتلنا اكثر من مكان في صحافة القاهرة . الاولى معركة العالم وأنيس مع العقاد ، وقد أسفرت - بلا اعلان واضح - عن الاطاحة بعشرات الادباء الحقيقيين ، ورفع آخرين لم يكن وجودهم الا وليد المصادفة . ولقد عاصرت مجلة الآداب معركة شبيهة بها في اول عام صدورها ، وكانت مجلة الرسالة اذ ذاك تلفظ أنفاسها الاخيرة بعد ان ظهرت بوجه تقديمي لم يرض شيوخ الادب . لم تكن المعركة معركة قديم وجديد ، وانما كانت معركة فكر رجعي وفكر حاول ان يبدأ بحثه من نقطة لها اصول في المنهج المادي الجدلي المعروف .

اين من بشر بهم العالم ؟

لقد وجدوا لان نقدا سياسيا اراد ان يوجدوا ، ولكن المجتمع القاريء رفضهم ، ومن ثم ماتت قصص ودواوين كانت في كل مكتبة وعلى طول سور الازبكية قبل ان تحتله الاكشاه . وبالمثل رفض المجتمع هؤلاء الذين تخلفوا عقليا وتكنيكيا ، وشيعت جنازة الكثير منهم في صمت غير رهيب !

كان الموقف السياسي هو السبب ، فزيف الواقع الادبي أشبع تزييف . فان خلصنا الى الواقعة الثانية التي احتلت اكثر من مكان في صحافة القاهرة ، ظهر الجانب الآخر من عملية التزييف ، ولكن في خطة مدروسة ذكية لان صاحبها من دهاة النقد وجعلته انا فسي كتابي « النقد الادبي الحديث » من أساطينه وفادته .

انني أقصد واقعة لويس عوض منذ ان احتل اسمه الصحف اليومية متنادبا ، والى ان أصبح المستشار الثقافي لجريدة الاهرام . وهي واقعة متشعبة المسارب ، وتدل في الوقت نفسه على ان صاحبها الذي يقرب فيها دأمية من دعاة التطور في ظل احداث التاريخ السياسي . وقد أعطى لنفسه الحق في ان يتبنى ادباء ومفكرين معينين ، واسجل له ذلك لانه يتمتع فعلا بمقدرة اصدار الاحكام المسددة في اطار الابدولوجية المحددة .

لكنه بعد ان أعلن رفضه لاغلب احكامه في اثناء زيارته لجامعة كولومبيا ولرکز دراسات الشرق الاوسط بجامعة هارفارد - وقد تم ذلك في نهايات عام ١٩٧١ - أصبح علينا ان نقول ما قاله الشعاعر المجري ميكلوس جايمز قبل ان يشق : لقد بدأنا نؤمن تدريجيا - تحت حكم ستالين - بان هناك نوعين من الصدق ، أحدهما ارقى من ذلك الذي نعرفه ، على أننا اذا اعتبرنا الصدق اساسه الموقف السياسي فمن الممكن قياسا على هذا ان نعتبر الاكثوية ضربا من الصدق ، ومن ثم يؤدي بنا الى الايمان بالفكرة التي ابتلي بها اولئك الذين لفقوا المحاكمات الكاذبة حيث سمموا حياتنا العامة وشلوا قدرتنا على النقد ، وفي النهاية جعلوا الكثير منا غير قادرين على التدقيق ومعرفة الصدق !

ان النقد بطبيعة الحال - كما يقول جورج واطسون في كتابه نقاد الادب (x) - لا يمنع نشر الاكاذيب ، ولكن عليه ان يعمل على كشف هذه التي تتحول منها الى حقائق . ومجتمعنا نحن في هذه المرحلة من التاريخ وهو يتعرض لهزات ثورية حاسمة يحتاج الى من يكشف الاكاذيب التي تتزيا بزى الصدق ، ولكنه بدلا من ذلك يعاني من تسلط الكذب واستبداد من يستطيع ان يقول في النقد كلاما يهدر القيم الفنية تحت دعاوى سياسية بدأت بالاشتراكية وانتهت عام ١٩٧١ ببورجوازية تقنعها الماركسية .

★ - The Litrety Critics

اننا يجب ان نسلم بان النقد الادبي - باستثناء اشياء معينة - هو مجموع نشاطات فردية ، وتاريخية من غير شك تاريخ النقد الذين تتابعوا عليه مقدمين الاجابات عن شتى مشكلات الادب . وفي الجانب الاخر يمكن ان يقال انه لو كان هناك تضافر على ايجاد المسارات النقدية ومن ثم تنعدم الفردية وتنتفي مسؤولية الناقد لظلت باقية حقيقة انه - عادة - همزة وصل بين الاديب وقارئه ، فتعود المسؤولية تأخذ بتلابيبه وبقوة في هذه المرة .

كم هو مثقف لويس عوض ، ولكن كم زور باسم السياسة ! فهو اشتراكي لان الاشتراكية كانت بداية التحرر ، ثم هو ماركسي قد تهيأت له كل الاسباب لاتقان المنهج المادي الجدلي . واذا هو لا تعوزه المهبة الناقدة - وان عجز عن النقد الجيد احيانا - فقد تخبط فسي تقييم نجيب محفوظ ، لانه قبل ان يدخل معقل البورجوازية بأمريكا أخضعه لموازين سياسية وافقت تطوره الفكري ، ثم رأى ان يحمره منها بان عراه فأضحك اليهود والامريكان . ومن هنا سيظل كل ما قاله لويس عوض في النقد - وبخاصة ما يتصل بنجيب محفوظ - ينتظر من ينقده ، وتظل الدراسات التي اظهرت تأثير صلاح عبد الصبور باليوت وانكفاء دانتي في ملحمة الخالدة على ابي العلاء واعتماد عزيز اباطة في مسرحيته عن قيصر على شيكسبير ، أعمالا غير جادة وبنابنا الشك كلما تعرضنا لها بالتقويم .

ماذا نريد من كل هذا ؟

لا شيء اكثر من ان النقد المشيسين يفتقدون ان ابدولوجيتهم هي وحدها التي تفسر كل الاسباب الاجتماعية والفكرية ، مع ان المنطق يقرر انها اذا كانت تقدم لهم الحماسة والخطة فهي لا يمكن ان تقدم وحدها المنهج الصحيح . واذن يكون من الخطأ الكبير الزام الاديب بما يلتزم به الناقد ، واصرار الناقد على هذا الازام معناه احداث الفجوة ، وهي فجوة قد تتسع لتصبح بدورها هوه سحيفة مميته .

(٥)

ثم ماذا بعد ذلك ؟

الحقيقة انه قد ظهر لنا ما نريد من النقد ، لا على انه تقييسم للامال الادبية - كفن - وتكن على انه كشف عن التجربة وتحديد جدواها . ويمكن حصر الجدوى في اقدار الانسان من خلال نللك التجربة على رؤية ذاته في حالة توافق تام معها ، وانه لمن سوء الطالع الا يرى اي انسان نفسه في التجارب ، لان ذلك معناه عمقها او لم يعشها موهوب صادق .

لقد هوجم هذا النقد ، باعتبارها ثانويا او نافها او اقل من ان يكون خلقا فنيا مع اننا لو تأملناه لشعرنا بانه عملية ادبية متكاملة ، وقد تحقق هذا التكامل بأيدي الشعراء الذين هجروا النظم الى النقد الادبي في منتصف اعمارهم كجونسون وكولريدج وارنولد ، وعندنا مثل هؤلاء عبدالقادر القظ ولويس عوض نفسه . واحسب ان واحسدا كدرايدن او اخر كاليوت - وقد مارس كلاهما الشعر والنقد معا - يمكن ان يبين شرح التجربة النقدية من الاعمال التي تعمل على خلق تصورات غير محدودة ولا يمكن ان تموت الا اذا ماتت قيمها الفكرية والجمالية .

هناك نقاد شدونا اليهم بتصوراتهم الفكرية - بعد المرحلة الشعرية التي عبروها - فأحسنا انهم فنانون اصلاء ، وان عوالمهم ارحب من ان تضيق بأفكار مسبقة او مواصفات مقررة ، ففضلا عن القوالب الجاهزة والاشكال الرامزة ، ولئن كان ان نفتح صدورنا لهم ، فان

علينا في الوقت نفسه ان نحترس من النظرات التعبيرية التي حملها لواعها - في النقد الانجليزي - امثال وردزورث ، وفام بهدم بعضها صديقه كولريديج ، فان هذه في مجموعها وفي ضوء ما اثبتته التواريخ الادبية في العالم لا تسفر مطلقا عن عقم يتبين .
واذن نصل الى الاجابة عن السؤال الثاني الذي مهر به العنوان وهو : لم ؟

أي لم نقصد ما دام النقد لا يقصد به أساسا اصدار الاحكام ؟
قد ترد هذه الاحكام في السياق عرضا ، لكنها لا يمكن ان تكون وحدها الهدف ، ومن ناحية اخرى ربما أفضى التحليل والتعليل الى شطط في التأويل ، وفي هذه الحال لا يتحقق الهدف ، واذاً يكون البديل قاصرا . غير أن وضع المشكلة هذا النوع لا يعني الامعالة صعبة ، وأسهل منها ان نفهم ان الكفتين لا يمكن ان تتعادلا ما دام في احدهما شيء لا يجانس ما في الاخرى ، ومع ذلك فان احتمال الشطط من الناقد المثقف المحايد ضئيل .
على ان المشكلة في اصدار الاحكام اعقد من ذلك كثيرا . بل تبدو محالة في هذا الزمن الذي يجتريء فيه على النقد فيسر التخصصين من ادعياء التمهذب وأصحاب المصطلحات التي تضرب في العميات ، فهؤلاء هم علة العلل ، بل هم الآفة التي ينبغي ان يتخلص منها النقد الادبي حتى يثمر ثمره .

ولا يشفع لهم قط التظاهر بالقدرة على « التشريع » او صياغة القواعد ووضع النظريات ، فان هذه في جملتها مستوردة وملفقة ، ولا يمكن ان تخضع لها النقود التطبيقية تحت اي شعار . ولعل ناقدا كبلند الحيدري - وهو شاعر مرموق - يستطيع ان يجتاز محنة الحكم المعلن في نقده التطبيقي ، لانه يبحث ويقفد على اساس من فهم للغة وادبها ، ومثل هذا يقال بسهولة عن نازك الملائكة ، لكن كم واحدا كبلند ونازك ؟

الاجابة يعرفها اكثر من كاتب يسهم في باب « قسرات العدد الماضي من الآداب » وهي لا تحتاج الى مشاحة ، فان النقد الذي يحتاج دائما الى العقول النيرة لتشريح يقتله الهوى ويكفنه التلفيق . واذا لم يقتل ويكفن ، فهو يظل غير مؤثر وغير قادر على ان يتحرك في سبيل خدمة النص وتربية الاجناس الادبية .

على هذا النحو يكون النقد ، وبغيره لانستطيع ان نزعم لحياتنا الادبية خصوبة او حتى وجودا . واكبر الظن ان المؤسسات الادبية - ومنها مجلة الآداب - يمكن ان تتدارك ما توقعها الجامعة او حسن الظن ، فتعيد تشكيل سياستها النقدية بهدف واحد هو حماية ثروتنا الادبية من آفة احتراف النقد والاجتراف عليه او التورط فيه .

احمد كمال زكي

القاهرة

دار الآداب تقدم

ماريو بوزو

رواية

العَرَابُ

رَبِّد

« العَرَابُ » The Godfather هو الرواية التي سجلت منذ صدورها في السنة الماضية اكبر رقم في التوزيع عرفته اية رواية عالمية حتى اليوم . فهي ساتزال تباع بالملايين في جميع انحاء العالم بعد ان ترجمت الى معظم اللغات . وقد اقتبس منها حديثا فيلم ضخم يعرض الآن في كثير من دور السينما في العالم ويشهد اقبالا فاق الاقبال على أشهر فيلمين عالميين هما « ذهب مع الريح » و « صوت الموسيقى » .
ولكن من يقرأ الرواية يلمس الفرق الكبير بينها وبين الفيلم الذي يمكن اعتباره صورة مشوهة عنها . لان الرواية التي كتبها ماريو بوزو اجمل واغنى بالاحداث واعمق بالتحليل من الفيلم . وبالرغم من ان هذه الرواية تشد القاريء اليها وتركه مذهولا ، فانها تعطي اصدق صورة لتحلل المجتمع الاميركي الذي يخضع ، حتى اعلى مستوى فيه ، لنفوذ عصابات « المافيا » ، هذه العصابات التي يمثل دون كورليون « العراب » رأسا من رؤوسها الخطيرة ويمثل اولاده فيها ادوار القتل والاجرام والجنس والوحشية . . .
ان « العراب » ادانة للمجتمع الاميركي وللاجرام الراسمالي الذي يقوم عليه والذي يخلق هذه الطبقة من « المافيا » ذات النفوذ الخطير الممتد الى النقابات ومجلس الشيوخ وسائر السلطات التي تشد خيوط الحياة الاميركية .

وبراعة المؤلف تقوم على تصوير الجريمة تحت مظهر الاحترام والوقار . ووراء عنوان « العراب » البريء ، يجد القاريء خمسمئة صفحة محشوة بالديناميت . . .

الثمن ٨٥٠ ق. ل

صدر حديثا